البيوت المرفوعة

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٩/١٨م

كان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان، وما ترك هذا الاعتكاف حتى قُبِض صلى الله عليه وسلم، فكان الاعتكاف من آكد السنن وأدومها في حياته الشريفة صلى الله عليه وسلم.

وحينما يُقبل أهل الإيمان على هذه السنة الشريفة المنيفة، يستشعرون فيما يستشعرون أُلفةً خاصة ببيت الله، فالاعتكاف فيه من الخيرات والبركات ما لا يعلمه إلا الله، ففيه تكثر المناجاة، وفيه يسمع العبد كلام ربه، وفيه تقل الذنوب وتختفي العيوب، وفيه يخرج الإنسان عن نفسه، ويتعلم الصدق والإخلاص في حضرة ربّه...

لكن الذي أحببت أن أقف في معناه من ثمرات هذا الاعتكاف المسنون عن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم هو الألفة التي يجدها أهل الإيمان مع بيت الله، فقد اعتاد الإنسان في حياته ألفة البيت الذي يسكنه مع أهله، لكنه في سنة الاعتكاف القصيرة هذه التي لا تتجاوز العشرة أيام يجد قلبه معلقًا بالمسجد، ويتمنى أن يقضي فيه عمره، مع أن الله سبحانه وتعالى كلَّفه أن يخرج بعد انقضاء المدة ليكون مصدر السعي المبارك في الأرض.

وتعلُّقُ القلب بالمسجد الذي هو بيت الله سببٌ من أسباب الظلّ الذي يجده أهل الإيمان يوم القيامة تحت عرش الرحمن، فلما عدّ الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم الأنواع السبعة التي يظلّلها الرحمن في ظلّ عرشه عدّ فيها رجلاً قلبُه معلَّقٌ بالمساجد، فكيف والحالُ أن هذه السُنَّة الكريمة تسوق المعتكف ليكون من أنواع متعددة من تلك التي عدّها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في المظلّلين تحت عرش الرحمن؟

أليس هو الذي يذكر الله خاليًا فتفيض عيناه؟

أليس هو الشاب الذي نشأ في عبادة الله؟

أليسا الرجلين الذَين تحابّا في الله واجتمعا عليه؟

وهو الذي قلبُه تعلّق ببيت الله المسجد؟

ولربما كان من الذين أخرج صدقة فما علمت شماله ما تنفق يمينه.

فيكون الخمسة من السبعة الذين ذكرهم إمامنا ومولانا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حاكيًا عن ذلك اليوم الذي تشتد فيه الأهوال، ويغوص الناس فيه في العرق حتى يكاد يلجمهم.

والألفة التي يجدها قلب المؤمن مع بيت الله تسوقنا إلى آياتٍ نقرؤها في كتاب الله تبارك وتعالى في سورة النور يقول الله سبحانه وتعالى فيها:

{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ، فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ، رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}

[النور: ٣٥– ٣٨].

والمتأمل في هذه الآيات يجد أن الله سبحانه وتعالى يجعل مَثَلَ نوره في بيوته، لأنه سبحانه وتعالى قال:

{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} وبدأ يتحدث عن مَثَلِ نوره الذي هو المشكاة التي فيها المصباح، والمصباح في زجاجة، وما كاد يشرح هذا المثل حتى انتقل بعدها مباشرة إلى واقع وجوده على الأرض.

فإذا أردت أن تشهد مثل نور الله فادخل إلى بيت الله لتجد مثل نور الله في بيت الله، وأفضل البقاع في الأرض المساجد، وشرُّ البقاع في الأرض الأسواق.

فبيت الله **مشكاة**، والمؤمن فيها مصباح، **والمصباح** في المؤمن ذكر الله، **والزجاجةُ** هي المؤمنُ في بيت الله لأنه في المسجد بروحه لا بجسده، فلم يدخل هذا البيت المبارك بمجرّد جسده كما يفعل المنافقون، لكنه دخل إلى بيت الله بروحه التي عبر عنها بالزجاجة، فالمصباحُ في هذه الزجاجة الدرّية ذكرُ الله.

إذًا:

الرجال هم تلك الزجاجة.

والبيوت هي تلك المشكاة.

والتسبيح في قلوب الرجال بالغدو والآصال هو المصباح المضيء.

فإذا أردت أن ترى مَثَلَ نور الله فادخل إلى بيت الله، وابحث فيه عن الزجاجة التي فيها مصباح متوقِّد يُوقَد من شجرة التوحيد التي أشار إليها في موضع آخر عندما قال:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم: ٢٤].

إنها شجرة التوحيد التي تنبعث من كلمة "لا إله إلا الله" التي أصلها في القلب.

وهكذا يستمد القلب من الشجرة، وحينما يستمدّ القلب من الشجرة يستمدّ من إمداد الله.

فإذا كان مَثَلُ نور الله في بيت الله، وإذا كان المؤمن يجد الألفة مع مَثَلِ نور الله وهو في بيت الله، وإذا كان الله تبارك تعالى قد أكرم هذا المؤمن وأذاقه معنى مَثَلِ نوره في هذه الأيام العشرة... فإن ذلك يربط الإنسان بالعام كله حتى يستصحب هذا المثل، لتكون علاقته ببيت الله علاقةً مستمرة دائمة، فإذا خرج من هذا الاعتكاف خرج وقلبُه معلَّقٌ ببيت الله.

وسمي بيت الله المسجد لأن المؤمن يسجد فيه لله وحده، فالأرض كلُّها مسجد، لكن الخصوصية تزداد في بيت الله، لأن هذا البيت المطهَّر لا يعتاد المؤمن فيه المعصية بل يُقبل فيه على الطاعة.

فإذا أراد أن يخرج في آخر هذا الشهر، وإذا أراد الصائمون الذين حُرموا من بركة الاعتكاف، استصحاب هذا المثل، فما عليهم إلا أن يلاحظوا هذه المعاني الثلاثة: **المشكاة، الزجاجة، المصباح**.

فكلما ضعف النور في قلبك أُدخل في المشكاة، وادخل في بيت الله، وحتى تكون أنت الزجاجة أوقِد في قلبك الحضورَ مع الله في ذكرك، واذكر ربك في قلبك، واذكر ربك في نفسك معظمًا، ومجلاً هائبًا، وراجيًا خائفًا... وستجد أن المصباح يشرق في قلبك، وستجد أنك الطاهر، وستجد أنك قد تحولت إلى زجاجة أو كوكبٍ دُرِّيّ...

إننا بحاجة إلى هذه النماذج خارج المسجد كما أننا بحاجة إليها في المسجد، فهي تُصنع في المسجد لكنها تضيء للناس خارج المسجد.

كان المسجد النبويُّ منطلقَ الحياة في زمن الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، فقد كان يضيء للحياة، وكانت الحياة تستمد أسرارها وأنوارها من المسجد، فإذا أراد المؤمن أن يعيد هذا في حياته ومجتمعه فما عليه إلا أن يتذكر هذا المثلَ لنور الله، وما عليه إلا أن يسأل نفسه:

هل أنا الزجاجة؟

هل أنا الكوكب الدرّيّ الذي يشرق بأنوار الله أم أن الذنوب قد أغلقت هذه الزجاجة حتى لم يعد يشرق منها هذا النور؟

فإذا سأل المؤمن نفسه هذا السؤال راقب قلبه، وراقب سلوكه، وراقب استمداده، وراقب إشراقه وتأثيره في الآخرين... لأنه كوكب دُرِّيٌّ يضيء لغيره.

اللهم لا تخرجنا من شهر رمضان إلا وقد غفرت ذنوبنا، وسترت عيوبنا، وفرّجت كروبنا، وقبلتنا في أوليائك وأصفيائك وأحبابك.

يا الله تقبل منا واقبلنا واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.